الإمام الطحاوي

صاحب العقيدة الطحاوية

د. عبد الرحمن عميره

أبو جعفر بن محمد بن سلامة بن مسلمة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي (١) في بلدة « طحا » (٢) التي تقع شمال صعيد مصر ، والتي تتوسط رقعة فسيحة من الارض ، معتدلة المناخ ، طيبة الهواء ، ساطعة الشمس كانت ولادته ••

وعلى نيلها العذب ، الزاخر بالخير ، الحامل للبركة ، المتدفق نحو الشمال في الصبر والترقب ، تنتظر خيرات الارض ، وترصد أماكن الخصب والنماء كانت نشأته ••

وبين لداته وأترابه في قرية « طحا » أبناء الشعب الطيب المسالم الذي اهتدى الى توحيد الخالق (٣) ، وعبادة الواحد الاحد ، قبل ان تهبط الديانات السماوية الكبرى الى الارض ـ كان منفردا بينهم بقوة حافظته ، وسرعة بديهته ، واستظهاره لقرآن ربه سبحانه وتعالى •

ولا عجب في استظهار الفتى ـ الطحاوي ـ القرآن الكريم مبكرا ، وتفوقه على كل اقرانه ، وانما العجب ألا يكون كذلك ••

لأن والده ـ محمد بن سلامة ـ أحد العلماء الأجلاء الذين كانوا يقطنون صعيد مصر ، وكان له باع طويل في علم الفقه والاصول ••

وخاله : اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل المزني (٤) ، قال عنه الامام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : المزني ناصر مذهبى •

ويصور قوة حجته في العلم ، وسلامة منطقه في محاجة العلماء بقوله : « لو ناظر المزني الشيطان لغلبه » (٥) •

الطحاوي الصغير في مدرسته الاولى :

ومدرسته الاولى التي تلقى فيها مبادىء القرآن والكتابة ، واستظهار القرآن الكريم هي حلقة الامام أبي زكريا يحيى بن محمد بن عمروس ، الذي كان يقول عن نفسه ليس في الجامع سارية الا وقد ختم ابو زكريا عندها القرآن (٦) ٠

وأبو زكريا هذا رجل علم وفقه ، استظهر كتاب ربه ، وتفقه في دينه وتأدب بأدب نبيه ، وطبع طلابه بطابعه ، وخرجهم على شاكلته ، باتباعهم لأوامره التي كانت تتصف بالصرامة والجدية في طلب العلم ، والاعتناء بكتاب الله والتفقه في الدين ٠

وضاقت على الفتى الطحاوي حلقة ابو زكريا ، ولم تعد تشبع تطلعه ورغبته في الاستزادة من طلب العلم ، فأخذ يتنقل بين حلقات العلماء في قريته كالنحلة الدؤوب في جمع رحيق الثمر ، وعصارة الزهر ، لتخرجه للناس عسلا مصفى فيه حياة ونماء ٠٠

فجلس في حلقة والده ، واستمع منه الى مسائل الفقه ، وآراء العلماء وحجج المعارضين ٠

ولكن كل ذلك لم يشبع رغبته ولم يحقق طلبته ، وقرر الذهاب الى القاهرة دار العلم والفتوى ، وملتقى العلماء والفقهاء ٠٠ وفي حلقة خاله التي كان يعقدها في بيته القريب من فسطاط عمرو استمع الى سنن الامام الشافعي رضي الله عنه ، والى علم الحديث ورجاله ٠ وكانت هذه الحلقة تعقد عادة في الصباح ٠٠ أما في المساء فكانت لخاله حلقة اخرى في مسجد عمرو بن العاص ـ هذا المسجد العتيق الذي كان منتدى رجال الفقه والحديث قبل ان يشيد الجامع الازهر وكانت هذه الحلقة تعنى على الاخص بفقه الامام الشافعي القديم والحديث ٠

وكان الطحاوي يستمع الى خاله في منزله في مجلس الحديث ويتبعه كظله في حلقة المسجد لا تغيب عنه كلمة ولا تبعد عن فكره مسألة (٧)

٠٠ وتأتي فترة تفقد الحلقة والمجلس الفتى الطحاوي ، ويظل مكانه امام خاله شاغرا لا يشغله طالب ولا يقترب منه انسان ٠٠٠

انتقال الطحاوي الى مذهب الاحناف وتضارب الروايات في أسباب ذلك

لماذا انتقل الطحاوي من حلقة خاله ؟٠٠

ولماذا اختار مذهب الاحناف ؟٠٠ تختلف الروايات التاريخية في أسباب ذلك اختلافا كبيرا وتتضارب الآراء في ذلك تضاربا بينا ٠

ولن نستطيع في هذه المجالة ، أن نستعرض كل ما قيل من آراء ، ولكننا نكتفي برواية ظاهرة كثر ترددها في كتب التاريخ والطبقات ٠٠

ونعني بها الرواية التي تنسب الى القاضي احمد بن عبد المنعم والتي تقول : « كان ابو جعفر الطحاوي يقرأ على المزني فقال له : والله لا يجيء منك شيء » (٨) فغضب وتركه واشتغل علي ابي جعفر بن أبي عمران الحنفي (٩) ٠

هذه هي احدى الروايات ٠٠ وقد يكون هذا حدث فعلا بين المزني والطحاوي ولكننا لا نميل كثيرا الى تصديق أن تكون هذه الحادثة هي السبب المباشر في انتقاله الى مذهب الاحناف ، وترك المذهب الشافعي ، الذي هو مذهب الأسرة كلها ، والذي يقوي لدينا هذا الشك ما ترويه كتب التاريخ في ذلك العصر ، وتصويرها طلاب العلم بالتواضع والالفة المتبادلة بينهم وبين أساتذتهم ، فالاستاذ يحب طلابه ويحدب عليهم كأبنائه ، ويسهر الليالي الطويلة بين بطون الكتب ، ليقدم لهم الرأي النافع والفقه المفيد ، والزاد العلمي الذي يغذي عقولهم ، ويرضي تطلعاتهم وكان الطلاب يبادلون أساتذتهم حبا بحب ووفاء بوفاء ٠

بل لا نغالي اذا قلنا بأن الطالب يحتفظ لأستاذه في قلبه بالمكانة العالية والتقدير الكبير ، حتى ان الواحد منهم كان لا يقدم على فعل من الافعال ، أو يتخذ قرارا من القرارات قبل الرجوع لشيخه ، والاستئناس برأيه ، والنزول على مشورته (١٠) ٠

وهذه الكلمة التي رويت عن المزني ليست من الامور التي تجعل طالبا للعلم في ذلك العصر ، ينفر من أستاذه ، ويقاطع حلقته ، ويحرم نفسه من علمه ، فما بالك اذا كان الطالب ـ كالفتى الطحاوي ـ خلقا ودينا وحسن أحدوثة ؟٠٠

اننا نعتقد ان العامل الاساسي في انتقاله الى مذهب الأحناف ·· هي الصورة التي بدأت تتكون لديه عن هذا المذهب ·· مما كـان يتمتع به أصحابه فـي ذلك العصر ·· من شجاعة في الراي ·· ومـن اثراء للمسائل ، وافتراض لما يجد من الاحداث ووضع الحلول لها (١١) ··

ومما يؤيد قولنا هذا : الحديث الذي دار بين الامام الطحاوي ، وبين الشيخ محمد بن احمد الشروطي : والذي سجله أبو يعلي الخليلي في كتابه : الارشاد ·

قال الشروطي : قلـت للطحـاوي لم خالفت خالـك واخترت مذهـب ابن حنيفة ؟·· فقال : لأني كنت أرى خالـي يديم النظر في كتب أبي حنيفة ، فلذلك انتقلت اليه (١٢) ·· لقد رأى الفتى الطحاوي خاله ــ قدوته وشيخه ــ يقرأ كتب الاحناف ويديم النظر فيها ، وهذا لا يمنع أن يستعرض مع طلابه بعض مسائلهم في حلقته ، وهو رجل له خلق ودين ، فلا بد أنه كـان يثني عـلى آرائهم ، ويظهر استحسانه ·· لبعضها على الآخر هذه واحدة ··

والثانية ·· أن يد الفتى الطحاوي كانت تمتد الى خزانة كتب خاله هذه ، ويختار منها ما يلائم مزاجه ، وما يقبله عقله ، واعتقد انه قد وجد طلبته في بعض هذه الكتب التي تحويها الخزانة من كتب المذهب الحنفي ، الامر الذي جعله ينفر من مذهب الشافعية ، وينضم الى مذهب الاحناف ··

وهناك ثالثة لا يمكن للباحث المدقق أن يسقطها من الحساب ·· وهـي أنه وفد على مصر في تلك الفترة الامام الجليل أبو جعفر أحمد بن عمران والذي تولى قضاء مصر في تلك الفترة (١٣) ·

وكان ابو جعفر رجل علم وفضل ·· واستطاع في فترة وجيزة من بقائه في مصر ان يهيىء لنفسه مكانة في قلوب الناس ، وان يستحوذ علـى مشاعرهم ، لما كان يتمتع به من غزارة علم ، ومن رجاحة عقل ، ومن تواضع جم ··

وكان لهذا القاضي ايضا مجلس فقه وحديث ، يجلس اليه فيه طلاب العلم والاصول فكان يدرس لهم الفقه الحنفي مع عرض آراء المذاهب كلها في المسألة الواحدة ويبسطها أمام طلابه في أمانة وصدق ، وفي سهولـة ويسر ، ويقارن بين

مذاهب بحيثيات القاضي النزيه الذي لا يميل مع الهوى او الغرض ، فبهر طلابه بعلمه ووضح ما استغلق على افهامهم بعقله ، ووضع لهم بذلك أسس التفكير الاسلامي المتزن ·

وكان الطحاوي أحد هؤلاء الطلاب الذين جمعتهم حلقة هذا القاضي الجليل فعب من علمه ، ونهل من فقهه ، وأعلن مبايعته له على مذهبه ··

شيوخ الطحاوي واكتشافهم لمواهبه :

هل اكتفى الفتى الطحاوي بهؤلاء العلماء الفضلاء الذين جلس اليهم واستمع الى علمهم ؟··

ان كتب التراجم تحدثنا عن مجموعة أخرى من العلماء ممن جلس اليهم ، أو التقى بهم ، أو استقى من علمهم ويذكر بعضهم ان عددهم اربى على ثلاثمائة شيخ وكان شديد الملازمة لكل قادم الى مصر من أهل العلم من شتى الاقطار حتى جمع الى علمه ما عندهم من العلوم (١٤) ، من ذلك ··

١ ــ يونس بن عبد الاعلى ·

٢ ــ هارون بن سعيد الأيلي ·

٣ ــ محمد بن عبدالله بن عبد الحكم ·

٤ ــ بحر بن نصر ·

٥ ــ عيسى بن شرود ، وغيرهم من علماء عصره ، ومن أصحاب ابن عيينة وابن وهب (١٥) ·

ثم التقى بعد هؤلاء بأبي عبيدة الله محمد بن عبدة القاضي (١٦) ، وكان رجلا سمحا جوادا يحب طلاب العلم ويحدب عليهم ، فاستكتبه أبو عبيدة ، وأعجب به فأغدق عليه الكثير من ماله ، ولم يبخل عليه بعلمه ·

وكان لهذا القاضي مجلس علم وفقه وادب ، وكان من عادته أن يجلس كل

ليلة مع رجل من اهل العلم والفضل يدارسه في أمور الدين ما عدا ليلة الجمعة فانه كان يخلو فيها مع نفسه (١٧) .

فكان يجلس في الليلة الاولى من كل اسبوع مع العالم الجليل : منصور بن اسماعيل المصري ..

وفي الليلة الثانية مع ابي جعفر أحمد الطحاوي .

والثالثة مع محمد بن ربيع الجيزي .

والرابعة مع عفان بن سليمان .

والخامسة مع الامام السجستاني (١٨) .

والسادسة مع جمع حافل من الفقهاء ورجال العلم .

وكان من عادة الامام الطحاوي أن يتصدر هذه الحلقات بجوار استاذه وشيخه أبي عبيدة الله .

وفي يوم من الايام دخل رجل الحلقة ، فوجد الطحاوي في صدرها — وكان دقيق العظم نحيف البدن ، لم يتخط مرحلة الشباب بعد ، فبادره بأسئلته ، ليعجم عوده ، ويتعرف على علمه ، ان كان عنده علم ، او ينحى عن الصدارة لمن هو أغزر مادة وأكثر فقها ..

ولكن الطحاوي بهر الرجل بقوة حافظته ، وسلامة فهمه ، وتنظيم عقله فبادره بسؤاله الاخير قائلا :

« ايش روى أبو عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أمه عن أبيه ؟..

قال الطحاوي : فقلت حدثنا بكار بن قتيبة .. حدثنا أبو احمد ، حدثنا سفيان عن عبد الاعلى الثعلبي ، عن أبي عبيدة ، عن أمه عن أبيه ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله ليغار للمؤمن فليغر » (١٩) .

فقال له الرجل تدري ما تقول ؟·· تدري ما تتكلم به ؟··

قلت : ما الخبر ؟··

قال : رأيتك العشية مع الفقهاء في ميدانهم ، وأنت الآن في ميدان أهل الحديث وقل من يجمع ذلك ·

فقلت : هذا من فضل الله وانعامه » ·

الطحاوي محدثا رغم ما قاله البيهقي ، وتفنيد التهم التي قالها ··

وكيف لا يكون الطحاوي محدثا ، وقد فتح عينيه على كتب السنن والاحاديث وسمع من خاله المزني كتاب السنن روايته عن الشافعي رضي الله عنه ؟··

وسمع الحديث ايضا من أهل عصره ·· حتى صار له خبرة ودراية بعلم الحديث ورجاله ومع ذلك لم يسلم من النقد والاتهام ··

ففي كتاب « المعرفة » للبيهقي نجد فصلا للنيل من الطحاوي ، ورميه بالجهل في هذا الميدان ونص عبارته « ان علم الحديث لم يكن من صناعته ، وانما أخذ الكلمة بعد الكلمة من أهلها ثم لم يحكمها » (٢٠) ·

وهذا الكلام الذي ينال به الامام البيهقي ، من الامام الطحاوي لا يقبل منه ، لأنه ليس له دليل يدعمه ، ولا برهان يثبت ما ادعاه عليه ·· وخصوصا بعدما شهد للطحاوي جمع غفير من العلماء بالحفظ والتثبت ··

منهم على سبيل المثال لا الحصر ·· ابن عبد البر الأندلسي المالكي رحمه الله ــ وهو أعلم من البيهقي بحال الطحاوي لما يقرر صاحب شذرات الذهب ·

ومنهم ايضا ابو سعيد بن يونس المصري مؤرخ مصر ــ ولا شك أنه أعلم من البيهقي بحال علماء مصر على الاقل ، فان صاحب البيت أدرى بمن فيه ··

وهذان العالمان الجليلان ، أقرب زمانا بالطحاوي من البيهقي ·· اذا كان ذلك كذلك فبماذا نفسر الحملة من الامام البيهقي ·· على رجل شهد له الكثير بالعلم والفضل ؟·· أيكون لتحول الامام الطحاوي الى مذهب الاحناف دخل في هذا الهجوم ؟·· بعض الروايات التاريخية تقول ذلك (٢١) ·

وليس هناك من الادلة غير هذه الرواية التي يرويها ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان · وان كانت طريقة الهجوم من الامام البيهقي ·· تجعل احتمال هذا الاتهام قائما ، حتى نعثر على غير هذه الرواية مما ينقض هذا الاحتمال ·

ان الامام الطحاوي له قدم ثابتة في علم الحديث وكتابه « شرح معاني الآثار » الذي اتفق كثير من المنصفين على أنه من خيرة الكتب التي صنفت في الحديث خير شاهد على ذلك ·

وهو كتاب يعرض فيه الابحاث الفقهية مقرونة بدليلها ويذكر في غضون بحثه المسائل الخلافية ويناقشها ، ثم يرجح ما استبان له الصواب منها (٢٢) على ضوء الاحاديث ومن النماذج التي تدل على تثبته في الرواية والأسانيد ما يرويه صاحب طبقات الشافعية عنه بقوله :

« قال الطحاوي : حدثناالمزني قال سمعت الشافعي يقول :

« دخل ابن عباس على عمرو بن العاص وهو مريض ، فقال : كيف أصبحت؟··

فقال : اصبحت وقد أفسدت من دنياي كثيرا وأصلحت من ديني قليلا ، فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت ·· ولو كان ينجيني أن أهرب هربت ، فعظني بموعظة انتفع بها يا ابن اخي ··

فقال : هيهات يا أبا عبدالله ·

فقال : اللهم ان ابن عباس يغبطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى (٢٣)»·

وعن عمر التنوخي : قال سمعت أبا جعفر الطحاوي قال : حدثنا يزيد بن سنان

حدثنا يزيد بن بيان عن أبي الرجال عن أنس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « ما أكرم شاب شيخا لسنه الا قيض الله عند سنه من يكرمه » (٢٤) ٠

وعن أبي محمد الجوهري املاء حدثنا ابن المظفر ، حدثنا الطحاوي ، حدثنا المزني ، حدثنا الشافعي ، حدثنا مالك عن أبي النضر عن أبي سلمه عن عائشة انها قالت : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصوم حتى لا نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وما رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استكمل صيام شهر قط الا رمضان ، وما رأيته اكثر صياما منه في شعبان » (٢٥) ٠

اذن كان الطحاوي محدثا وراوية ، ولم يكتف بما حصله من خاله ، وقراءته سنن الشافعي عليه ، ولكنه استمع ايضا الى المحدث ابراهيم بن أبي داود الفريس الذي كان يقال عنه انه من الحفاظ المكثرين ٠٠

ولقد ساعد الطحاوي على ذلك ، حافظة واعية ، وذاكرة قوية تعي ولا تهمل وتحفظ ولا تنسى ٠

من ذلك أنه ذهب شاهدا أمام محمد أبي عبدالله بن زبر قاضي مصر في ذلك الوقت فأكرمه غاية الاكرام ، وبعد الانتهاء من شهادته ٠٠ سأله القاضي عن حديث كتبه رجل من ثلاثين سنة فأملاه عليه (٢٦) ٠

سياحة الطحاوي في طلب العلم :

كان من عادة الطحاوي في ذلك العصر السياحة في أقطار الارض طلبا للعلم وبحثا عن المعرفة ٠٠ وقلما نجد عالما من علماء المسلمين الا وكانت له رحلة وسياحة ، ومن هذا المنطلق سافر الطحاوي الى الشام مفتشا عن المعرفة وباحثا عن اصحابها ، فسمع من علماء بيت المقدس ، ومن فقهاء غزة وعسقلان وألقى رحاله بدمشق بين قاضيها الثبت المحقق أبي خازم عبد الحميد بن جعفر الذي تولى القضاء للخليفة المعتضد ، ثم من بعده للخليفة المكتفي (٢٧) ٠

أذهب الطحاوي الى بلاد اخرى بعد رحلته الى الشام ؟٠٠

هل اتجه الى مكة أو المدينة ، وكان الكثير من العلماء يذهبون الى مكة للمجاورة وطلب العلم ؟..

هل رحل الى بغداد وكانت أيضا كعبة القصاد والعلماء من اقطار الارض قاطبة؟

.. ليس لدينا من الادلة ما يشير الى ذلك أو يدل عليه ــ على كثرة المراجع التي رجعنا اليها في هذا الصدد ..

عودته الى مصر وذكر بعض العلماء الذين تخرجوا على يديه :

عاد الطحاوي الى مصر ليتصدر مجالس العلماء والفقهاء ويربي جيلا من ابناء المسلمين في أنحاء الارض قاطبة ممن كانت السياحة تدفع بهم الى الديار المصرية .. هذا الجيل الذي انتشر بعدها في البلاد الاسلامية ، وكان لهم ذكر وعمل .

وهم عدد يجل عن الحصر والعد منهم :

١ ــ أبو بكر أحمد بن محمد بن منصور الدامغاني ، الذي انتقل الى بغداد واستمع الى الامام الكرخي ، ولما أصيب الكرخي ، جعل الفتوى اليه دون أصحابه فاقام ببغداد دهرا طويلا يحدث عن الطحاوي ويفتي باقواله .

٢ ــ ومنهم أبو محمد عبد العزيز محمد التميمي الجوهري قاضي الصعيد .

٣ ــ أحمد بن القاسم بن عبدالله البغدادي المعروف بابن الخشاب الحافظ .

٤ ــ أبو بكر علي بن أحمد بن سعدوية البرادعي .

٥ ــ أبو القاسم مسلمة بن القاسم بن اراهيم القرطبي .

٦ ــ أبو القاسم عبدالله بن علي الواودي القاضي شيخ أهل الظاهر في عصره .

٧ ــ أبو الحسن محمد بن أحمد الأخميمي .

٨ ــ أبو بكر محمد بن ابراهيم بن علي المقري الحافظ ، وسمع منه كتابه « معاني الآثار » .

٩ ــ أبو الحسن علي بن أحمد الطحاوي « ابنه » .

١٠ ـ أبو بكر محمد بن جعفر بن الحسين البغدادي .

١١ ـ ميمون بن حمزه العبيدلي روى عنه العقيدة (٢٩) .

مؤلفاته وآثاره :

ترك الامام الطحاوي مجموعة من الكتب والمصنفات ، لا ينكر منصف انها أثرت المكتبة العربية ، وقامت بدور ملحوظ في خدمة طلاب العلم والمعرفة من ذلك :

١ ـ العقيدة الطحاوية ، وقد تناولها كثير من العلماء بالشرح والتعليق وطبعت عشرات الطبعات ، وتدرس على جميع طلاب كليات الشريعة بالمملكة العربية السعودية .

٢ ـ احكام القرآن في نيف وعشرين جزء .

٣ ـ شرح معاني الآثار في الحديث وهو مجلدان ، وهو أول تصانيفه ط .

٤ ـ بيان مشكل الآثار وهو آخر تصانيفه،واختصرها ابن رشد الماللكي (٣٠)

٥ ـ المختصر في الفقه ، وولع الناس بشرحه ، وعليه عدة شروح .

٦ ـ شرح الجامع الصغير ، والجامع الكبير .

٧ ـ الشروط الكبير ، والشروط الصغير ، والشروط المتوسط .

٨ ـ المحاضر والسجلات والوصايا والفرائض في الحديث وهي أربعة أجزاء (٣١) .

٩ ـ كتاب نقص كتاب المدلسين على الكرابيس .

١٠ ـ كتاب العزل .

١١ ـ المختصر الكبير ، والمختصر الصغير .

١٢ ـ كتاب التاريخ الكبير .

١٣ ـ كتاب في مناقب ابي حنيفة رحمه الله (٣٢) .

١٤ ـ كتاب النوادر الفقهية في عشرة اجزاء .

١٥ ـ كتاب النوادر والحكايات في نيف وعشرين جزء .

١٦ ـ كتاب حكم أراضي مكة وقسم الفيء والغنائم .

١٧ ـ كتاب الرد على عيسى بن ابان في كتابه الذي سماه خطأ الكتب .

١٨ ـ كتاب الرد على أبي عبيدة فيما أخطأ فيه في كتاب النسب .

١٩ ـ كتاب اختلاف الروايات على مذهب الكوفيين (٣٣) .

توليه القضاء وأقوال العلماء فيه :

وبعد عام السبعين والمائتين تولى الامام الطحاوي قضاء مصر بعد وفاة قاضيها محمد ابن عبده ، وصار رئيسا لمذهب الأحناف (٣٤) . وذلك في عهد الدولة الطولانية (٣٥) فسار في الناس سيرة حسنة ، وكان موضع تقدير العامة اولخاصة . لما كان يأخذ نفسه به من الاعتماد على ربه والاستمساك بأوامر دينه . ومن كان كذلك جمع بين الحسنتين الدنيا والآخرة .. ولهذا أسند اليه منصب القضاء فلم يكن له معارض ، وأسندت اليه رياسة المذهب الحنفي فاستقبل الخبر من الجميع بالقبول والارتياح ..

قال الشيخ أبو اسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء : انتهت اليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر » (٣٦) .

وقال عنه صاحب كتاب شذرات الذهب : شيخ الحنيفة الثقة الثبت ، وصنف التصانيف منها العقيدة السنية ، وبرع في الفقه والحديث (٣٧) .

.. وقال : ابن يونس : كان ثقة ثبتا فقيها عاقلا لم يخلف مثله .

وقال مسلمة الاندلس في كتابه « الصلة » كان الطحاوي ثقة جليل القدر ، عالما باختلاف العلماء بصيرا بالتصانيف ، وكان يذهب مذهب أبي حنيفة ، وكان شديد العصبية فيه لا يرى حقا في خلافه » (٣٨) .

وقال ابن عبد البر في كتاب العلم : كان الطحاوي من أعلم الناس بسير الكوفيين وأخبارهم وفقههم مع مشاركته في جميع مذاهب الفقهاء (٣٩) ·

قال : وسمع ابو جعفر الطحاوي منشدا ينشد :

ان كنت كاذبة التي حدثتني فعليك اثم أبي حنيفة او زفر

فقال ابو جعفر وددت لو ان على اثمهما وأن لي أجرهما » (٤٠) ·

الطحاوي في أيامه الاخيرة :

كان للامام الطحاوي مكانة كبيرة في قلوب العلماء والفقهاء ، واستمرت هذه المكانة في حياته وبعد مماته ، ومن دلائل ذلك ما كان يفعله معه العلماء ورجال الفقه والقضاء ومن أمثلة ذلك القاضي عبد الرحمن بن اسحاق بن محمد بن معمر الجوهري فكان لا يركب الا بعد أبي جعفر ولا ينزل الا بعد نزوله ، فقيل له في ذلك ·· فقال : هذا واجب لأنه عالمنا وقدوتنا ، وهو أسن مني باحدى عشرة سنة ، ولو كانت احدى عشرة ساعة ، لكان القضاء أقل من أن أفتخر به على أبي جعفر » (٤١) ، هذه هي أخلاق السلف الصالح من علماء هذه الأمة ، كانوا يحرصون دائما على التخلق بالاخلاق الفاضلة ، ويطبقون القرآن على كل سلوكياتهم وأعمالهم ويتأدبون بأدب النبوة ، ويقتدون بأفعال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كل ما يأتون من امر أو ينتهون عن نهي · وكانوا يقعدون لأنفسهم قواعد يلتزمونها ويحددون حدودا لا يتعدونها، لا فرق في ذمك بين كبيرهم وصغيرهم عالمهم ومتعلمهم·

ومن الرجال الذين كانوا يلازمون الامام الطحاوي في أيامه الاخيرة القاضي ابو عثمان احمد بن براهيم بن حماد ، ليستمع منه ، ويتعلم على يديه ، ويتزود منه بكل ما يحتاج اليه من فقه او حديث ·

وفي يوم دخل مجلس الامام الطحاوي رجل من عامة الشعب يسأل عن مسألة فقهية وكان القاضي يجلس معه ··

فقال الطحاوي مجيبا السائل من مذهب القاضي أيده الله كذا وكذا ·

فقال له الرجل : ما جئت الى القاضي وانما جئت اليك ·

فقال له : يا هذا من مذهب القاضي ما قلت لك ، فأعاد الرجل القول ·

فقال القاضي : افته أعزك الله ·

فقال : اذا أذن القاضي ، قال : قد أذنت فأفتاه (٤٢) ·

وهذا يدل على الادب الجم ، والتواضع الكبير من عالم العلماء ، وشيخ الفقهاء وأستاذ المتكلمين ··

ولا غرو في ذلك ، فان القرآن أدبهم ، واقتداءهم بأخلاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذبت مشاعرهم ، وأقامهم على ظهر الارض قادة ومعلمين ··

وفاة الامام الطحاوي :

واذا كان لكل بداية نهاية ، ولكل أجل كتاب ، فان الامام الطحاوي قد استوفى أجله بعد أن ملأ الدنيادويا بعلمه وفقهه ، وترك بصماته على تاريخ هذه الامة وتراثها ، ولا زالت آثاره المخطوطة ، والمطبوعة تمد طلاب العلم والمعرفة بالزاد الذي لا ينضب وبالفهم العميق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله :

وكانت وفاته سنة احدى وعشرين وثلاثمائة (٤٣) ، ويكاد يكون هذا التاريخ الذي أجمع عليه كتاب السير ، ما عدا محمد بن اسحاق النديم ·

الذي يقدر في كتابه الفهرست (٤٤) أنه مات سنة اثنتين وعشرين بعد الثلاثمائة ، وقد بلغ الثمانين ، رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للاسلام والمسلمين ··

ثبت بالمراجع

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي
عبد الرحمن بن محمد بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ ·
مطبعة حيدرآباد ـ مجلس دارة المعارف العثمانية ١٣٥٥ هـ
٢ ـ البداية والنهاية : أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ت ٧٧٤
مطبعة المعارف ـ بيروت ·
٣ ـ تذكرة الحافظ للذهبي · محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ
تحقيق عبد الرحمن بن يحيى العلي ، حيدرآباد ١٣٧٥ هـ ·
٤ ـ طبقات الحفاظ للسيوطي : جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن ٩١١ هـ ·
تحقيق علي محمد عمر ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ١٣٩٣ هـ ·
٥ ـ الفهرست لابن النديم : محمد بن اسحاق ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ
القاهرة ـ ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م ·
٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : للمؤرخ ابن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩
مطبعة القدس ـ مصر ·
٧ ـ اللباب في تهذيب الأنساب : تاليف عز الدين بن الاثير الجزري
مطبعة صادر ـ بيروت
٨ ـ معجم البلدان للشيخ الامام شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله
الحموي الرومي البغدادي مطبعة صادر ـ بيروت
٩ ـ وفيات الاعيان : لابن العباس شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان
٦٠٨ ـ ٦٨١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة
النهضة ـ مصر
١٠ ـ الاعلام ـ قاموس تراجم ـ خير الدين الزركلي ـ ط ثالثة
١١ ـ لسان الميزان للامام أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
ت ٨٥٢ طبعة المعارف بالهند عام ١٣٣٠ هـ ·
١٢ ـ الجواهر المضيئة لابن أبي الوفا في طبقات الاحناف
١٣ ـ القضاء في الاسلام ـ د· عطية مشرفة
١٤ ـ تاريخ القضاء في الاسلام ـ د· أحمد عبد المنعم البهي
١٥ ـ أخبار القضاة لوكيع محمد بن خلف بن حبان تحقيق : عبد العزيز المراغي

د· عبد الرحمن عميرة الاستاذ بجامعة الامام محمد بن سعود
الاسلامية ـ الرياض

الهوامش والمصادر

(١) راجع ترجمة الامام الطحاوي في طبقات الاحناف جـ ١ ص ١٠٤ والاعلام للزركلي جـ ١ ص ١٩٧

(٢) طحا : بالفتح الطحو والدحو : بمعنى البسط، وطحا كورة بمصر شمال الصعيد في غرب النيل

(٣) راجع في ظلال القرآن سيد قطب جـ ٦ ص ٣٤

(٤) اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل المزني ـ صاحب الامام الشافعي من أهل مصر ، نسبة الى مزنية من مصر من كتبه الجامع الصغير والكبير ـ ١٧٥ ـ ٢٦٤ هـ ٠

(٥) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٩٣ تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناجي ٠

(٦) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٨١ ٠

(٧) الجواهر المضيئة في طبقات الأحناف جـ ١ ص ١٠٥ ٠

(٨) البداية والنهاية للامام ابن كثير جـ١١ ص١٧٤ ، وراجع وفيات الاعيان لابن خلكان جـ١ ص٥٣

(٩) ابو جعفر احمد بن عمران الفقيه المحدث لاصحاب ابي حنيفة كان يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ، والايمان قول وعمل يزيد وينقص مات سنة ٣٣١ هـ ٠

(١٠) راجع الحياة العقلية في كتاب ضحى الاسلام د٠ أحمد أمين ٠

(١١) راجع ابو حنيفة بطل الحرية والتسامح : المستشار عبد الحكيم الجندي ٠

(١٢) وفيات الاعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٥٤ ٠

(١٣) الجواهر المضيئة في طبقات الاحناف جـ ١ ص ١٢٧ ٠

(١٤) شرح العقيدة الطحاوية ترجمة الامام الطحاوي ص ٩ تحقيق جماعة من العلماء ٠

(١٥) لسان الميزان لابن احمد بن علي حجر العسقلاني ت ٨٥٢ جـ ١ ص ٢٧٤ ٠

(١٦) محمد بن عبده بن حرب المصري العباداني ابو عبيد الله من كبار القضاة ولي النظر في المظالم بمصر اربع سنين سنة ٢٧٨ هـ فاقام ست سنين ونشبت فتن فاستتر مدة واعيد سنة ٢٩٢ هـ فلم يمكث طويلا ورحل الى العراق فمات هناك وكان سخيا مفضالا قوي النفس جبارا مهيبا ٢١٨ ـ ٣١٣ هـ ٠

(١٧) شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٨٨ ٠

(١٨) سهل بن محمد بن عثمان الجشمي ت ٢٤٨ هـ الملقب بالسجستاني ٠

(١٩) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٧٦ ٠

(٢٠) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٧٦ ٠

(٢١) المصدر السابق ٠

(٢٢) شرح العقيدة الطحاوية طبع المكتب الاسلامي المقدمة ص ١١

(٢٣) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٩٧ تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ٠

(٢٤) تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٨١١ .

(٢٥) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨١٣ .

(٢٦) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٨٢ .

(٢٧) الجواهر المضيئة لابن أبي الوفا جـ ١ ص ٢٩٦ وراجع كتاب الاعلام للزركلي جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢٨) المصدر السابق جـ ١ ص ١٢١ .

(٢٩) يمكن الرجوع في تراجم هؤلاء الى طبقات الاحناف ، والى كتاب الولاة والقضاة وقد ترجم لبعضهم كتاب الاعلام للزركلي ، وأيضا كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان .

(٣٠) يقع هذا التاب في سبع مجلدات ضخام ، وهو من محفوظات مكتبة فيض الله شيخ الاسلام في استنبول ، والقسم المطبوع منه في حيدرآباد في أربعة أجزاء ربما لا يكون نصف الكتاب وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع يسوق الاحاديث التي تبدو لأول وهلة انها متعارضة ثم يأخذ في دفع ذلك التعارض بطريقته الفذة التي يرتاح اليها المؤمن : المقدمة للعقيدة ص ١١ .

(٣١) الجواهر المضيئة لابن أبي الوفا ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣٢) كتاب الاعلام للزركلي جـ ١ ص ١٩٧ .

(٣٣) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٣٤) الاعلام للزركلي جـ ١ ص ١٩٧ وراجع تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٨٠٩ .

(٣٥) تاريخ القضاء في الاسلام د. عطية مشرفة ص ١٩٣ .

(٣٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٣٧) تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٨٠٩ .

(٣٨) هذه قولة لا نوافق عليها ابن عبد البر لأن الطحاوي في كتابه « معاني الآثار » يرجح ما لم يقل به امامه ومما يؤيد ذلك ما قاله ابن زولاق : سمعت ابا الحسن علي بن ابـي جعفر الطحاوي يقول سمعت ابي يقول وذكر فضل ابي عبيد وفقهه فقال كان يذاكرني في المسائل فاجبته يوما في مسالة فقال لي : ما هذا قول ابي حنيفة فقلت له أيها القاضي اوكل ما قاله أبو حنيفة أقول به ؟٠٠ فقال : ما ظننتك الا مقلدا فقلت له وهل يقلد الا عصبي فقا لي أوغي فطارت هذه بمصر حتى صارت مثلا وحفظها الناس .

(٣٩) طبقات الاحناف جـ ١ ص ١٠٥ .

(٤٠) المصدر السابق .

(٤٢) لسان الميزان جـ ١ ص ٢٨١ .

(٤٣) المنتظم لابن الجوزي جـ ٦ ص ٢٥٠ .

(٤٤) الفهرست لابن النديم ، ولسان الميزان جـ ١ ص ٢٧٧ .